5

جدليّة الوحدة والإختلاف

نحو تأصيل لمفاهيم معاصرة

الشّيخ راشد الغنّوشي

تونس، 2016

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

جدليّة الوحدة والإختلاف

الأستاذ راشد الغنوشي

تونس في 2016

المحتويات

❖ المقدمة 04

1. جدلية الوحدة والاختلاف والتعددية السياسية في الإسلام 07

- أولا: الوحدة والاختلاف في بنية الإسلام 12

أ – عقيدة التوحيد وسنة الاختلاف 12

ب – الاختلاف سُنَّة كونية 18

ج – الاستخلاف والهدى الالاهي 20

- ثانيا: الشورى والتعددية في تجربة المسلمين 25

❖ المراجع 43

2. حق الإختلاف وواجب وحدة الصف 49

- أنبل ظاهرة ولكن 49

- المحنة 51

- تأثير التراث 56

أ- قضية الاستبداد 57

ب- الاغراق في الغيبيات 58

ج- سيادة التقليد وغياب الإجتهاد 59

د- فشل المسلمين في إدارة الحواربينهم 61

❖ الانفصال عن الواقع 71

بسم الله الرحمان الرحيم

تقديرنا ان التخلف والتحضّر ظاهرتان لا ترتبطان وجودًا أو عدمًا بعقيدة معينة كالإسلام أو النصرانية أو المادية، بقدر ما ترتبطان بمدى احترام هذه الديانة / الفلسفية أو تلك لكرامة الانسان وحريته، ومدى قدرتها على ابداع أنظمة حياة تفسح المجال أمام ملكاته للتفتح والنمو والإنتاج والتطور، بعيدا عن القمع والكبت والتخويف بما يجعل الحضارة فضاءً مفتوحا لاستقبال الكفاءات العالية وتوفير فرص النمو والتكامل وتبادل التأثير، فيما التخلف مزبلة طاردة لكل المخلوقات الجميلة لا تمسك ولا ينجذب إليها غير الجراثيم والعناصر الضارة.

لم يختلف السمت العام للفضاءات الحضارية في أثينا أو بغداد او شيراز أو قرطبة أو سراييفو عن أمثالها في لوس أنجلس وباريس وفرنكفورت وأمستردام أو ستوكهولم، لم يختلف سمتها العام باختلاف عقائد أهلها أيام تحضّرها من جهة ما كانت تتسم

به الانظمة التي حكمت تلك المدن أيام حضارتها من قبول الاختلاف والتَعدّد وتمازج للألوان والالسن والديانات، وإعلاء مكانة العقل والحوار والمناظرة، والعلم والعلماء، والمفكرين والفلاسفة فانجذبت اليها العقول الكبيرة وتلاقحت فأثمرت الحضارة علومًا وفنونًا وصناعات، بينما أَقْفَرَتْ شجرة الحضارة من تلك الطيور الجميلة وثمار روائها وعقمت عن أن تنتج ثمرة وذوت أوراقها وما عادت تصلح إلا وقودا للحطابين؟

الأستاذ راشد القنوشي

جدليّة الوحدة والإختلاف والتعدّدية السياسية في الإسلام

جدليّة الوحدة والإختلاف والتعدّدية السياسية في الإسلام[1]

رغم تنامي الادبيات الاسلامية المعاصرة في المجال السياسي تعويضا عن نقص هذه المادة في تراثنا المعاصروتأصيلا للحرية ولمبادئ المواطنة أساسا للحقوق ولسلطة الشعب مصدرا وحيدا للشرعية بما يفتح – من جهة-الطريق أمام التعددية السياسية والسماحة والمشاركة في السلطة وتداولها سلميا عبر انتخابات تعددية نزيهة ، ويضع – من جهة أخرى- حدا أوعلى الاقل يكبح جماح آفة الاستبداد الذي غشي جل مراحل تاريخنا السياسي ، ويوصد كل سبيل لادعاء استحقاق ولاية من غيرطريق الشورى ويلغي كل مسوغ لقيام تنظيمات سرية تخطط للعنف وللانقلاب سبيلا للاصلاح ولإقامة العدل والنهي عن المنكرات، غالبا ما

---

[1]ورقة مقدمة لندوة الفقه السياسي للأقليات المسلمة باروبا ـ استنبول 3-7-2006

تتأسس على تصورات أحادية مغالية قد تبلغ حد تكفير المخالف واستحلال دمه وتوفير أعظم الفرص لأعداء الاسلام تشويها لصورته ولقيمه ونفخا في كير الحقد عليه وعلى أهله، قلت رغم كثرة الادبيات في هذا المجال فإنها لا تزال تلقى أقدارا غير قليلة الشوائب من حصار تراث التشدد والضيق المنبعث من كهوف الماضي البعيد بدعوى الحرص على تجريد التوحيد من الشّوائب والدفاع عن وحدة الامة في وجه خطر التفرق، والتطهّر من رجس التلقي عن الكافرين، بما بدا معه سياق تطور الفكر الاسلامي وكأنه أحيانا يراوح مكانه إن لم يتراجع خلال نصف القرن الماضي عن قدر من تراث الاصلاحيين (منذ الطهطاوي وحتى البنا مرورا بالأفغاني وعبده وخير الدين التونسي، وذلك في مجال الانفتاح عما هو نافع من ثقافة العصر وبالخصوص في ما يتعلق بتنظيم الشورى بالإفادة من آليات الديمقراطية، فضلا عن أن جل هذه الأدبيات الاسلامية المؤصلة للتعددية وللحرية وللمواطنة وسلطة الشعب أساسا للحقوق ولبناء الدولة لا يزال يشوبها قدر غير قليل من الغموض والتردّد في المضي بمبدإ الحرية الى نهاياته أساسا لكل

علائق المسلم وتبعاته الدينية والدنيوية في كل ما يبرم من عقود بدء بعقد الايمان وانتهاء بعقد البيعة مصدرا وحيدا لشرعية الحكم(1). وهو ما يجعل عموم هذه الادبيات قاصرة عن تقديم رؤية إنسانية تسع الجميع مهما اختلفوا، سعة أفق الخطاب الالهي الرحيم"يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (2).كما تجعل المسلم حيثما كان في بلد هو فيه أغلبية أم أقلية ضعيفا أم قويا لا يطالب مخالفيه إلا بما هو مستعد لتقديمه لهم عندما يكون في نفس المركز القانوني "كما تدين تدان". لكأن الفقه السياسي الاسلامي ظل باستمرار دائرا في فلك واحد :"ياأيها الذين آمنوا" ولم يتحرك أصلا أو بما يكفي الى فلك آخر، تحرك فيه الخطاب الالهي بموازاة ذلك، خطاب "ياأيها الناس:" فلم يجهد نفسه ليصنع له فقها،متابعة لروح دستور المدينة ومقاصده الذي أسس لدولة ومجتمع لا يستثنيان أي جزء من التكوينات العرقية أو الدينية القائمة، كما أنهما منفتحان لاستيعاب كل من يلتحق بهذه الامة من الناس التي جمعت المهاجرين والانصار والهود " ومن تبعهم

ولحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس"(3). يقول الشاوي معلقا"إن رسولنا الكريم لم يقصر المواطنة على المؤمنين من المهاجرين والأنصاروإنما أضاف اليهم من تبعهم ولحق بهم .فاللحاق بالأمة هو كل عمل أووضع يعني الانضمام الى مواطنها ومشاركتهم في مسؤولية المواطنة والتزاماتها."(4) وبذلك وضع دستور المدينة المترجمُ المعصومُ عن روح القرآن الانسانية الاساسَ لتعددية استوعبت في رحابها كل الحضارات والاعراق والديانات وفتحت لجميعها فضاء رحبا للإسهام بعطائها، فبرئت حضارة الاسلام من الحروب الدينية والتطهير العرقي، إلا أنها في المستوى السياسي، مستوى تحويل مبدأ الشورى الى نظام يحقق مطلوبه ولا يتقاصر عنه في أن الشأن العام لا يستقل بتقريره فرد أو بضعة أفراد وإنما هو راجع الى الامة كلها وأن ليس للحاكم من سلطلة غير ما يخوله له الناس أصحاب السلطة ، من طريق عقد صحيح، باعتباره خادما عندهم موظفا لديهم أَوْكَلُوه عليهم في إنفاذ بعض ما أولاهم الله من تكاليف بمشورة منهم ورقابة ومراجعة للعقد متى

شاؤوا، من دون ادعاء منه بقداسة أو امتلاك شخصي لهذه السلطة يورثها من يشاء متاعا شخصيا.

غير أن هذه الصورة المشرقة للتطبيق الاسلامي لم تعمّر طويلا إذ سرعان ما سفت عليها رمال الصحراء وغشتها الاتربة المتساقطة من مواريث الامبراطوريات الثيوقراطية التي أطاح بها الاسلام ليتشكل مما نزل من صَيِّب سالت به أودية فتفاعل مع أدرانها، ليتشكل من ذلك مزيج، ظل حظ السماء فيه يتضاءل حتى تباطأت الحركة وركدت بما استقر من أنظمة استبداد كادت تفرغ الشورى من كل محتوى غيروشم ظاهر. ولم يستيقظ المسلمون إلا ومدافع الاعداء تدك حصونهم معلنة عن انتقال مركز الحضارة الى الضفة الاخرى التي شهدت تجددا في بناءاتها الفكرية والصناعية والعسكرية مستفيدة من تراث المسلمين الحضاري والإنساني ترجمة – على نحو ما – وإن غلب عليها النظر أكثر من الفعل ،عن تلك الآفاق القرآنية الانسانية من خلال تطوير رؤى فلسفية انسانية تتحدث عن حقوق للإنسان وأنظمة ديمقراطية تعددية

وقوانين دولية تطمح الى تجسيم تلك الآفاق ،كما فعل الفيلسوف الالماني ايمانويل كانط وفلاسفة التنوير.

لكأن المسلمين وحتى في أسمى صورهم ممثلة في تيار الوسطية الاسلامية لا يزال بهم قدر غير قليل من الخوف من الحرية أو من ضعف الثقة بشعوبهم أن يقبلوا الاحتكام اليها أو من ضعف الثقة في فطرة الانسان وسبق الخير اليها وسرعة فيئها اليه إن هي توفرت لها فرصة التعرف عليه الحرية شرط لا غنى عنه في توفرها. وهو ما يطرح السؤال عن مكانة الاختلاف والتعدد في التصور الاسلامي وحدوده وبالخصوص في المستوى السياسي؟ وما هي العوائق في الطريق ؟ وما هو محصول التجربة الاسلامية على هذا الصعيد ؟وما هي انعكاسات كل ذلك على الاقليات المسلمة في الغرب بالخصوص؟

أولا: الوحدة والاختلاف في بنية الاسلام:

أ- عقيدة التوحيد وسنة اختلاف.

لقد أولى الإسلام أهمية بالغة لعقيدة التوحيد وأشاد عليها كل بنيانه، حتى انْسَاحَتْ في كل مسلك للمسلم، وإنجاز حضاري للجماعة، وهو ما مثّل ضربة للشرك في كل أشكاله النظرية والعملية. وكان الوجهُ الآخر والثمرةُ لعقيدة التوحيد وحدةَ الجماعة ووحدةَ الكيان السياسي الإسلامي"الخلافة" والتحذير من التنازع والفرقة والغلو باعتبارها خطرا على الوحدة وعائقا في طريق صناعة الوفاقات والاجماعات التي يتغيَّاها الاسلام ويحرّضُ عليها. ولكن الدعوة القطعية إلى التوحيد ونبذ الشرك والتفرق لم يكن معناها ولا قصدها إلغاء لسنة الاختلاف" المغروزة في طبيعة الإنسان"(5) قال تعالى"فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين. وما كان ربك ليُهلِك القرى بظلم وأهلها مصلحون. ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدةً .ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم" هود115- 118 يعلق صاحب المنار على الآية الأولى بقوله"جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الامم بظلمهم وإفسادهم في الارض للإعلام بأنه لو كانت فيهم

جماعات وأحزاب أولو بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم وأفسدهم وإذن لما هلكوا (6)."

وبذلك- حسب تعبير صاحب "الميزان"- انقسم الناس الى صنفين: الناجون بإنجاء الله (لأنهم نهوا عن الظلم والفساد والمجرمون . ولذلك جاء التعقيب"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك"(7) ويعلق الامام الرازي على هذه الآية بقوله"إن المراد بالظلم هنا الشرك"إن الشرك لظلم عظيم " _لقمان 13_والمعنى أنه تعالى لا يهلك القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم . والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل ان القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الايذاء والظلم. ولهذا قال الفقهاء إن حقوق الله مبناها على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح. ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفرولا يبقى مع الظلم .ومعنى الآية أن الله لا يهلكهم بمجرد شركهم إذا كانوا مصلحين يعامل بعضهم بعضا على الصلاح والسداد والدليل على ذلك أن قوم نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب إنما نزل عليهم عذاب الاستئصال لما حكى الله عنهم من إيـذَاءِ النـاس وظلـم الخلـق"(8) قـد خلقهـم مختلفـين - على مـا يجمعهم من طبيعة واحدة- مختلفين في المدارك والأذواق والأمزجة والألوان والقوة البدنية والمهارات. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة: في العقيدة واللون والقوة والاتجاه، ولكن لأنه أرادهم أحرارا فكان الاختلاف ثمرة لكائن عاقل حر، ولم يكن شذوذا عن الطبيعة بل هو مركوز في أصلها ومراد من مرادات الخالق الحكيم باعتبار ذلك مقصـدا مـن مقاصـد اسـتخلاف الإنسـان في الكـون: أنـه يصـيب ويخطئ ويظل ويهتدي ويحسن ويسيء.إن الاختلاف ليس أمرا عرضيا سيزول "فلا جرم – حسب تعبير صاحب التحرير والتنوير- أن الله خلق البشر على نظام من شانه طريان الاختلاف بينهم في الامور ومنها أمر الصلاح والفساد ليتفاوتوا في مدارج الارتقاء " وقوله تعالى" ولذلك خلقهم. اللام للتعليل. لمّا خلقهم على جبلة واحدة قاضية باختلاف الآراء وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلة وعالما به كان الاختلاف علة غائية لخلقهم . ولا ينافي ذلك " وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون" _الذاريات 66_ العلة الغائية لا

يلزمها القصر عليها بل يكفي أنها غاية الفعل وقد تكون معها غايات اخرى، لأنه قصر إضافي"(9). ولقد استشكل على الكثير أن يكون الانسان خلق للاختلاف وليس للرحمة ، فقال ابن عباس "وللرحمة خلقهم"إذ لا يجوز أن يقال وللاختلاف خلقهم لأن عودة الضمير للاقرب أولى ثم أنه لو خلقهم للاختلاف وأراده منهم فكيف يعذبهم عليه.وآخرون قالوا إن المراد وللاختلاف خلقهم.(10) وليس في ذلك تعارض لازب بين أن يكونوا للاختلاف خلقهم أو للرحمة. سياق الآيات دال على سنة أن الله سبحانه عدل لا يعذب قوما وفيهم جماعات وأحزاب تتصدى للظلم والظالمين ويسلّي على إعراض قومه عن دعوته ويطمنه أن ربه قادر على هدايتهم لو تعلقت إرادته بذلك ولكنه شاء أن يخلق عباده أحرارا فمنهم مؤمن ومنهم كافر عادل وظالم فالاختلاف بينهم مستمر حتى يحيى من حيى ويهلك من هلك عن بينة.

على أن الاختلاف لا يضرّ ما دام اختلافا في الحق وليس بغيا وعدوانا فذلك أختلاف أهلُه مرحومون شأن الاختلاف في الدين

الحق أي في أصوله أما الفروع الاجتهادية ومن قبيل الموازنات بين المصالح والمفاسد وما اليها فالمجتهد فيها مصيبا أو مخطئا مأجور. وهو أبلغ صور التسامح مع الاختلاف بل هو تشجيع عليه. وذلك أن الانسان مبتلى بالاختلاف نتيجة تكريمه وابتلائه بالعقل والحرية ابتلاء حقيقيا وصعبا"وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون"_الفرقان20_ إنه مبتلى بصفته فردا وبصفته عضوا في جماعة . إنه اختبار صعب ،النجاح فيه هو سبيل التحضر والفوز بالرحمة الالهية الموعودة. قال تعالى"الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا"_الملك 11_. فليس أشد على النفس امتحانا من الاختلاف هل يعدل مع المخالف عدله مع الموافق مع الصديق كالعدو؟هل تمتلك الجماعة المبتلاة بالاختلاف - وما منه بدّ- من ثقافة الشورى وأدوات إدارتها حضاريا ما يحفظ عليها بركات الاختلاف من تفتيق للرأي وتجديد في الفكر والمنهج وإثراء للرأي وتوسعة على الأمة ولذلك جاء النقل عن الخليفة الراشد الخامس أنه لم يكن ليسره لو أن أصحاب محمد لم يختلفوا، هذا الاختلاف من شانه أيضا ليس أن يحفظ وحدة الجماعة وحسب

بل يعمل على فتح آفاق تطورها وانفتاحها على كل جديد نافع واستيعابها لفيض جديد من الطاقات الحية فيكون اختلافها حضاريا رفيعا مرحوما مباركا لا يتعلق بمُحْكَمَات الدين، وذلك مقابل اختلاف مذموم ينال من ثوابت الدين ومن وشائج الاخوة ووحدة الجماعة فيكون اختلافَ عذابٍ؟ ذلك مقياس من مقاييس درجة الامة وحظها من التحضر أو التخلفَ: نوع منهاجها في التعامل مع الاختلاف أي حظها من الشورى وأدواتها المستعملة في إدارة ما تبتلى به من خلاف بدءً بنوع استقبالها له شجبا وتبديعا وتضليلا وتهويلا ،ونبذا وعزلا لصاحبه، على عادة المرتكسين في التخلف والجمود ؟أم مبادأة بحسن الظن والسعي الى تفهم ما وراء الراي وما عسى يكون فيه من نفع وحق لإبرازه والوقوف عما يخالطه من باطل يكشف بموضوعية واحترام لصاحبه عما فيه.

ب- الإختلاف سُنَّة كونية:

إن الاختلاف في مخلوقات الله سنة كونية وآية من آيات الابداع الالهي " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم

وألـوانكم إن في ذلـك لآيـات للعـالمين" _الـروم21_ ويلفـت البيـان القرآني بقوة الى قانون الاختلاف في الكون الدال على قدرة الخلاق وانفراده بهذا الإبداع ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيـب سـود، ومـن النـاس والـدواب والانعـام مختلـف ألوانـه كـذلك، إنمـا يخشـى الله مـن عبـاده العلمـاء"_الـروم26-27_ يعلـق الشـيخ ابن عاشـور على هذه الآية بأنها " استئناف فيه إيضاح ما سبقه من اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى ورفضه بسب ما تهيأت لـه مـن خلقـة ليظهـر أن الاخـتلاف نـاموس جبلّيّ فطـر عليـه مخلوقـات هـذا العـالم الارضـي "(11) ويـذهب صـاحب "التفسـير القرآنـي للقـرآن الى ان " الاخـتلاف بـين النـاس أمـر لا زم لانتظـام حياتهم"(12)بل يذهب الجاحظ معللا الاختلاف "اعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيمـا يخـالف مصـلحتهم "(13) أي لـم يحـب أن يخلقهـم نُسَـخًا متكررة، بتعبير القرآن "أمة واحدة" شـان أمم النحل والبعير التي ولـئن انـدرجت ضـمن سـنة الاخـتلاف فـلا واحـد منهـا ولا مـن شـجرة

نسخة من الاخرى إلا أن اختلافها محدود، بما هي محرومة من إرادة حرة وعقل يتصور، ممّا يجعل أجيالها مهما تباعدت لا تضيف جديدا.

ج- الاستخلاف والهدي الالاهي.

إن الاستخلاف- وهو المقصد من الخلق من طريق تعمير الكون- هو ابتلاء للإنسان بطبيعة مزدوجة تتزاحم فيها نزوعات الشر والخير، وبقدرات عقلية هادية وإرادة حرة قادرة على الاختيار وإرسال الرسل إليه عونا لعقله، ليهتدي بنور الوحي: ادخارا لجهوده أن تضيع في متاهات ميتافيزيقية لا قبل له بارتيادها: بحثا في تفاصيل الألوهية والنبوة وقضايا الميعاد والحلال والحرام والخير والشر لطالما طوّح البحث فيها بالعقل وراء الزمان والمكان، فضلّ وأضلّ منصرفا عن مجال عمله الطبيعي المثمر في نطاق الزمان والمكان.

غير أن الوحي الإلهي إنصبّ عمله على رسم الهيكل التصوري

والقيمي العام الذي يريده الله لحياة البشر من عقائد وعبادات وأصول للأخلاق، تاركا في الغالب لعقول الناس التفصيل في أنظمة عيشهم بحسب ما يناسب أوضاعهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية والحضارية. فإذ قد خلقهم أحرارا عاقلين وأنار عقولهم بالوحي بمُوَجِّهات عامة لحياتهم، فقد غدا اختلافهم لا مناص منه قبولا أو رفضا للالوهية وللوحي من جهة أو تنزيلا لأصول الوحي العامة على واقع متبدل متنوع، من ناحية أخرى، ولا يُنْجِي من ذلك الاختلاف توخِّيهم لقيمة الشورى والتزامهم بها، إذ الشورى ليس هدَفها استئصال الاختلاف من حياة الناس، وإنما تنظيمه بما يعيد قدرا من الوحدة الطوعية إلى عالم الاختلاف والتعدد منعا له من أن يتطور إلى قطيعة وتحارب وفتنة داخل الجماعة، أو مسوغا للتجبر والتحجر استطالة على خلق الله.. ولكن رغم أن الأمر بالشورى هو اعتراف بالاختلاف وسعي لتجاوزه كلما تعلق الأمر باتّخاذ قراريهم الجماعة، فما ينبغي لواحد منها أن ينفرد بالتقرير فيه. ولكن كيف ستدار الشورى؟ ما هي شروط المستشار؟ وما هي القضايا التي يستشار فيها كل أعضاء الجماعة الرشّد، وما هي

القضايا التي لا يستشار فيها إلا الخاصة (أهل الحل والعقد)؟ وكيف الوصول إليهم في أمة مترامية الأطراف؟ وما علاقة الخليفة بهذه الهيئة الشورية؟

ومعنى كل ذلك أن الوحي لا ينطلق من إنكار طبيعة الاختلاف في البشر وفي بنية الكون ذاته. فما ينتظر ذلك من دين الفطرة وانما هو شأنه مع كل مكونات الطبيعة البشرية، يعترف بها ويعمل على تهذيبها وتطويرها في اتجاه تلبية حاجاتها وفض معضلاتها لتحقيق أعلى درجة ممكنة من الانسجام والتوافق بين طبيعة حرة عاقلة تنتج الاختلاف ضرورة وبين مراد الله في توحيده وعبادته، وفي وحدة جماعة المسلمين على اعتبار أن عيش الإنسان في جماعة هو الآخر مغروزا في أصل فطرته بموازاة لميله الفطري إلى التمركز حول ذاته وابتغاء خيرها أو ما يحسبه كذلك، وان يكن على حساب ذوات أخرى، وهو ما من شأنه أن يمثل تهديدا لوحدة الجماعة، ما يقتضي ضروبا من الجدل والحوار والتفاوض بحثا عن وفاق بين الإرادات المختلفة. فجاءت تشريعاته المتعلقة بجزئيات الحياة

عامة تاركة ملء الفراغات لعقول البشر عبر الشورى، توصلا إلى وفاق لا يلغي الاختلاف ولكنه يهذبه حتى يكون اختلاف تنوع ورحمة" إلا من رحم ربك"_هود119_ يغني الحياة، وليس اختلاف تناقض وصدام وتناف يدفع إلى الفتنة."إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيئ"_الانعام159_ وإذن فالميل إلى الاختلاف جزء من طبيعة الإنسان اعترف به الدين ودعا إلى تهذيبه عبر الحوار والشورى والتربية على الأخوة والمحبة والرفق والسماحة، ونبذ العنف والشقاق، وذلك توصلا إلى مستوى من مستويات الوحدة مهما ارتفع لا يبلغ أن يكون وحدة بسيطة لا عوج فيها ولا أمتا، إذ الواحد الأحد بإطلاق هو الله وحده .وكل ما سواه متعدّد. ولا سبيل لبلوغ الوحدة في مجاله إلا على نحو نسبي لا ينفي بالكامل ما بداخله من اختلاف. ويتأسس على أصالة منزعي الاختلاف والوحدة في طبيعة الإنسان وعلى بنية الاسلام دين الفطرة وعلى مبدإ ختم النبوة واستخلاف الامة المستأمنة على الوحي في غياب الرسل، لزوم مبدأي الشورى والاجتهاد ما بقي إسلام ومسلمون،بحثا عن صورة من صور الاجماع، إذ الاجتهاد

كالشورى، تكليف لكل مؤمن، لكل مؤمن حظه من الاجتهاد وحظه من الشورى، حسب مستواه العلمي المعرفي وقدراته ومسؤولياته في الجماعة، تأسيسا على مبدأ حرية الإنسان واستخلافه وختم النبوة. ولأن ذلك سيقود حتما إلى تهديد مبدأ وحدة الجماعة بسبب تعدد الاراء وتضاربها، فقد وجب تنظيم الشورى حتى تنتقل من مجرد موعظة وقيمة خلقية إلى جملة من الآليات،الى نظام للمشاركة العامة والخاصة في إدارة الشأن العام يسد باب الانفراد أو الفتنة(الفوضى) وذلك عبر التداول في ما يطرح من آراء واجتهادات تتعلق بالشأن العام، توصلا إلى مستوى من مستويات الإجماع حول موقف مشترك يوجه عمل الجماعة في مرحلة معينة. لأن ساحة الرأي والاجتهاد تتسع للتعدد، بل لا تنمو إلا في مناخه. بينما إذا تعلق الامر بعمل تكون الحاجة ماسة أن نكون يدا واحدة على من سوانا "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص" (الصف3).

❖ ثانيا : الشورى والتعددية في تجربة المسلمين:

لقد دحضت الانتروبولوجيا وجود شعوب نقية من الاختلاف والتعدّد. ورغم أنه من حسن حظ المسلمين أن البيئة التي نبتت وازدهرت فيها أول تجربة مجتمعية اسلامية بيئة تعددية استوعبت كل مكوناتها ولم تضق بطرف منها . ومع ذلك كانت إدارة الاختلاف السياسي في تجربة المسلمين عصيبة جدا ولا تزال ربما بسبب غلبة المواريث القبلية وثقافة التحكم والاستبداد وضريبة الجغرافيا أن كنا في وسط العالم، ملتقًى لمواصلاته وخزانا لأهم موارده الاستراتيجية المادية والروحية بما جعلنا غرضا لكل طامح لزعامة عالمية لا تسلم له حتى يضع يده على هذه المنطقة من قلب العالم فيبذل وسعه في شل طاقات النهوض فيها وبالخصوص إذا توفرت فيها القابلية.وهي متوفرة للخنوع كما هي متوفرة للقومات الدموية دون حساب لما تتيحه الظروف الواقعية من امكانات للتغيير، تطلق الارادات المكبلة وتحفظ وحدة جماعة المسلمين،توصلا عبر الشّورى إلى القرار الجماعي الذي يرفع الخلاف في مستوى العمل،

حتى وإن أبقى عليه - حقا للجميع- في مستوى الفكر، سواء أكانوا جميعا مسلمين أم كان أكثرهم أو أقلهم ، على اعتبار أن المجتمع الإسلامي ومنذ مجتمع المدينة: أول اجتماع إسلامي في شكل دولة، كان تعدديا ضم مسلمين من قبائل ومستويات اجتماعية مختلفة، وفئات تنتمي إلى معتقدات أخرى، تولى دستور المدينة متمثلا في" الصحيفة" تنظيم حقوق المواطنة بينهم وواجباتها ما جعل منهم على اختلافهم أمة واحدة من دون الناس"حسب تعبير الصحيفة(14)" ليست أمة العقيدة وإنما هنا أمة السياسة، أي المشتركون في صفة المواطنة في دولة المدينة.لقد مثل دستور المدينة سابقة مهمة جدا في التأسيس لمجتمع متعدد يعترف بحقوق المواطنة لكل مكوناته لا باعتبارهم أفرادا وحسب شان المجتمعات المعاصرة بل باعتبارهم مجموعات ذات روابط عرقية وثقافية فتعدّد الصحيفة ست عشرة جماعة . لقد كون دستور المدينة من كل هذه الجماعات وحدة" هي مزيج من وحدة القبيلة والوحدة الدينية والوحدة السياسية التي تجمع المسلمين واليهود ضد مشركي قريش وحلفائها. قبائل المسلمين كل منها وحدة بذاتها .

ثم المسلمون جميعا وحدة واحدة وقبائل اليهود كل منها تكون وحدة ثم اليهود معا يكونون وحدة واحدة . ثم المسلمون واليهود يكونون وحدة واحدة ثم المسلمون واليهود جميعا يكونون وحدة هذه الجماعة الجديدة . وبتعبير الصحيفة"إن اليهود أمة مع المومنين"لقد اسست هذه الوثيقة الدستورية المهمة جدا لقاعدة المواطنة أساسا للحكم كما قدمت سابقة يمكن للأقليات المسلمة أن تفيد منها بالمطالبة باندماج لا بصفتهم أفرادا مطلوبا تحويلهم سمادا في تربة الأغلبية وإنما بصفتهم جماعة ثقافية دينية مطلوبا الاعتراف بها والمحافظة على خصوصياتها لا سيما في مسائل الاحوال الشخصية كالأسرة والميراث ومسائل المآكل والمشارب والملابس والأعياد وأماكن العبادة ومؤسسات التعليم مما كانت يتمتع به المواطنون غير المسلمين في المدينة وتواصل في سمته العام على امتداد التاريخ الاسلامي رغم بعض الإخلالات التي انحدر فيه الفقه عن مستوى أفق دستور المدينة تحكما في الاقليات غير المسلمة منعا لها من إظهار خصوصياتها أو حملها على ما يزري بها بتأويل خاطئ لتوجيه "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم

صاغرون" التوبة 29 ينزل المواطنين منزلة الحربيين المراد كسر شوكتهم(14).

وكما هو منتظر فقد ظل النبي وفيا للدستور في تعامله مع تلك الفئات ولك أن تقول نواتات الاحزاب في دولته. كان يُعْمِل الشورى الملزمة وبالخصوص في شؤون السّلم والحرب كما حصل في قرار الحرب في بدر وفي أسراها وكما حصل في قصة الخروج في أحد وفي حصار الخندق ..كما كان يعمل الاستشارة الفردية غير الملزمة(15) وكان أصحابه يميزون بين تعدد أوصاف النبي وبالخصوص وصفه التبليغي عن ربه وبين وصفه السياسي إذ يتسع المجال للاجتهاد وتعدد الموافق فإذا استشكل عليهم الامر سألوا.

ولقد أسفرت خمائر الاحزاب عن نفسها وحققت نموا أكبر ولم تلبث أن تبلورت خلال الخلافة الراشدة بدْءً بالحدث الثاني لتأسيس الدولة الاسلامية في السقيفة بعد التأسيس الاول في بيعة العقبة الثانية بين حزبي المهاجرين والأنصار. ففي السقيفة برزت بوضوح ارادة جادة على استمرار الكيان السياسي الذي تشكل في

المدينة تأسيسا على وعي عميق بالتمييز بين نبوة ختمت وانتهت وبين سلطة سياسية تأسست وأن أوان تثبيتها منفصلة عن شخص القائم بها حتى وإن كان نبيا. لم يكن هذا الوعي محل اختلاف أو شك في وسط النواة الصلبة المتشكلة من المهاجرين والانصار الحزبين الرئيسيين عمدة الدولة. كما كان الاتفاق قائما على أن هذا أمر الجماعة ورسالتها أمرهم جميعا، هم المسؤولون عنه، دون ادعاء طرف منهم بأحقيته المسلّم بها في وراثتها أو في الوصاية عليها ، حتى وإن تحدث بنو هاشم وممثلهم علي عن أنهم أولى بالأمر بحكم القرابة من النبي. في السقيفة حيث اجتمع ممثلوا الحزبين الرئيسيين يتشاورون ونبيهم عليه السلام لا يزال مسجّى، أدلى كل ممثلي التكتلين الحزبيين الرئيسيين، أنصارا ومهاجرين بحجته مدافعا عن كونه الاجدر بخلافةِ النبي – كما يحدث في برلمان متقدم. ولقد كان حزب الانصار قد بادر الى الاجتماع واتجه الى ترشيح أبرز زعمائه سعدا ابن معاذ، غير أن ممثلي المهاجرين حضروا وجادلوهم مدلين مقابل حجة الانصار في أنهم آووا ونصروا وهو ما أقربه منافسوهم، بحجتين قويتين :الاولى دينية أنهم

الاسبق نصرة للنبي والثانية اجتماعية متعارفة يومئذ أنهم عشيرة النبي وأن العرب لا تجتمع على غير قريش زعيمتها التقليدية. وهكذا تم الاتفاق على ترشيح أبي بكر ومبايعته بالخلافة في مجلس الشورى وتعزز ذلك بالبيعة العامة في المسجد، بما شكّل إجماعا أو يكاد. وبالخصوص بعد التحاق علي بن ابي طالب ممثل حزب بني هاشم وإن على مضض، إلا أن زعيم الأوس الذي تاقت نفسه للخلافة ظل رافضا للبيعة، لا يصلي بصلاة الجماعة ولا يفيض بإفاضتها وظل معلنا لمعارضته حتى توفي على ذلك دون أن يُعْتَقَل أو يُحَاكم. والجدير بالملاحظة أن حزب الانصار لما لم ينجح في الاقناع بانتزاع الخلافة طرح حلا بديلا طريفا هو تداول السلطة بين الحزبين المهاجرين والانصار بالتوالي إلا أنه لم ينجح في الاقناع بمقترحه بسبب قوة حجة الحزب المنافس وحصول خلل داخلي في صفوفه لصالح الحزب المنافس.(16) وكل ذلك دال على أن النبي لم يورث دينا وحسب وإنما أورث دولة ظل الديني والسياسي فيها على قدر كبير من التمازج. غير أنه لم يورث آليات محددة لإدارة هذه الدولة عبر أشكال معينة من الشورى على اعتبار أن هذا من

أمر الناس ومفوح للتطور ولاستيعاب كل ما يستجد من تجارب نافعة في إطار الشريعة صاحبة السيادة العليا وفي إطار الامة صاحبة السلطة نيابة عن الله ورسوله، وفي سياق التفاعل بين ثوابت الدين والواقع المتحرك وفي غياب آليات محددة للشورى ومع ذلك تمت عملية نادرة تمثل قفزة الى الامام متخطية منطق العصر وما يسوده من ثيوقراطيات وملوك مقدسة تمت تجربة فريدة للتداول لسلمي للسلطة بين الخلفاء الاربعة الاول عبر صيغ مختلفة لبيعة حقيقية وإن بدت صعبة مع الخليفة الثالث وأصعب مع الخليفة الرابع. اذ عجزت الآليات المتوارثة عن الوفاء بمقتضيات الشورى بأثر الجغرافيا الاسلامية التي شهدت توسعا مذهلا لم تعد معها الجغرافيا الاولى التي نشا فيها وعمل النموذج الاسلامي الاول للدولة دولة المدينة، تمثل غير رقعة صغيرة جدا وسط امبراطورية مترامية(17).. وهكذا لم تلبث البلاد الجديدة التي غدت جزء من الدولة أن زحفت على عاصمة الدولة تطالب بما تعتبرها حقها في السلطة والثروة والعدل وبالخصوص وهي ترى من ظلوا لوقت قريب من وفاة النبي يحاربونه في غير هوادة يزحفون

على السلطة والثروة في ظل خليفة تقدم به العمرواعتبروه متحيزا لهم فطالبوه بالاعتزال ولم تكن هناك آليات تسمح بذلك فأهدروا دمه (رض) فاتحين أبوابا للشرّلم تكد تغلق . وصدق من قال إن أول سيف سل في الاسلام كان من أجل الخلافة(18) وهو سيف لم يغمد بعد، بسبب عجز المسلمين عن نقل الشورى من مستوى الموعظة الى كونها آليات لاتخاذ القرار الجماعي تكفل إدارة الاختلاف – حول السلطة الذي طالما مزق وحدة الامة وأضعفها - سلميا وهو ما نجح فيه آخرون ظل الارتياب في أفضلية تجربتهم في النفس منه شيء.

لقد انقسم المسلمون بسبب النزاع على الخلافة أحزابا لم تلبث أن اكتست كساء دينيا بسبب علاقة الدين الوطيدة بشؤون الحياة ومنها السياسة باعتبارها رعاية مصالح الناس وهو مقصد الدين. انقسموا الى شيعة علي(رض)، لم يلبثوا أن طوروا نظرية بل قل عقيدة الوصية وقاموا بجولات خروج مسلح بقيادة خيرة من نسل النبي علما وصلاحا وجهادا سفكت دماؤهم الواحد بعد

الآخر على يد سلطة تولت النطق باسم حزب أهل السنة والجماعة بعد أن حولت الحكم من الخلافة الى ملك وراثي بان أنه أقرب الى السائد من ثقافة العصر القبلية والامبراطورية، فرض نفسه بالقوة، وانتزع الاعتراف به كأمر واقع مقابل تنازلات فرضت عليه في الاحتكام للشريعة وحصر سلطانه في التنفيذ، حتى إذا أنهك السيف حزب الهاشميين طوروا فكرة تبقي على الامل حيا والرجاء في استعادة المبادرة قائما فكرة الغيبة المبررة للانتظار وعدم الاعتراف بشرعية الدولة القائمة.

وغير بعيد من ذلك فعل حزب آخر حزب الخوارج القريب من روح البادية في عنفه وبساطته، فقد أنهك دولة الامويين وأنهكته فاستؤصلت فرقه المتشددة ولم يعمّر منها غير فرقة واحدة على قدر من الاعتدال من حيث عدم تكفير المخالف وهم "الاباضية". ولئن كان هذا الحزب النقيض للشيعة في رفض فكرة القرشية والوراثة أصلا بل حتى وجوب الامامة إذا أمكن العدل من دونها، فإنهما يشتركان في أنهما لم يعترفا بالسلطة سلطة الحزب الاكبر ممثل

"حزب أهل السنة والجماعة"، حتى بدون رضاهم. ومثّل ذلك مشكلا أساسيا من مشاكل الفكر السياسي الاسلامي حال دون تطوره في أجواء آمنة معقولة وفشل في تطوير آليات للمعارضة السلمية بما حصر الامر بين القبول بسلطة الامر الواقع مع السعي لدفعها الى تحسينات أو العمل السري المنظم في انتظار فرصة للقومة المسلحة التي كثيرا ما أشاعت من الفوضى والهرج أكثر مما حققت من التغيير المنشود، وهو ما حمل الفقهاء وبالخصوص في الزمن المتأخر على الاعتراف بشرعية الشوكة بحسب قاعدة "من ظهرت شوكته وجبت طاعته". بينما كان في الامكان تطوير ثقافة الثورات السلمية وأدبياتها أو الجهاد السلمي الذي وصفه القرآن بالجهاد الكبير ومجده النبي عليه السلام واصفا إياه بأنه أفضل الجهاد، على غرار ما فعل الزعيم الماهاتاما غاندي أو آية الله الخميني. وفي الكتاب العزيز" فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا (الفرقان 52).

أحزاب دعوة وأحزاب قبيلة: وبالنظر الى عالم الافكار يمكن تصنيف الاحزاب التي ظهرت في الاسلام بأنها أحزاب دعوة حتى وإن استخدمت عصبية القبيلة، وأحزاب قبيلة حتى وإن استخدمت الدعوة.(19) ومعظم الدول التي نشأت في الاسلام كانت مزيجا منهما وإن غلب على معظمها المنزع القبلي بدء بالدولة الاموية وعلى نحو ما الدولة العباسية التي بدأت بمزيج منهما ولذلك عمرت أطول وكذلك كانت دولة العثمانيين منتمية للصنف القبلي مع تأثر بالإرث البيزنطي . وفي عصرنا يمكن اعتبار الاحزاب القومية امتدادا للنموذج القبلي مثل الاموي بينما الاحزاب الاسلامية هي أحزاب دعوية منها ما هو أقرب الى الخوارج في رفضه دولة الامر الواقع ورهانه على اسقاطها بالقوة شأن جماعات العنف وإعراضها صفحا عن أي التفاتة لموازين القوة وإعطاء السياسة بما هي حوار وتفاوض وموازنات بين مصالح ومفاسد وتدرج في تحقيق المطالب بحسب أولويات وإقامة تحالفات مع الخصوم السياسيين أو العقائديين بدل الرهان على علاقة تناف معهم . ومن ذلك رفض الديمقراطية وآلياتها بله الاعتراف أو التعامل مع الاحزاب العلمانية

حاكمة كانت أو معارضة وإشهار سيف الردة في وجهها حتى وإن يكونوا هم أنفسهم معاضين مضطهدين. وقد يبلغ تشدد بعض هولاء حد رفض التعددية حتى في الاطار الاسلامي بزعم أن الحديث عن الاحزاب لم يرد خارج معرض الذم في القرآن في تجاهل لاختلاف سياقات الورود خلطا بين سياق الحرب والعداوة التي ورد فيه ذكر الاحزاب وبين سياقات الاصلاح والتغيير الواردة فيها الآن، جزء من بنية حكم اسلامي شوري أو ديمقراطي حديث على أساس حقوق للمواطنة للجميع وتداول سلمي للسلطة يتيح للاغلبية حق الحكم وللاقلية حق المعارضة والسعي اليه. وقد يستظهرون بأحاديث ضعيفة أو موضوعه أو مؤولة مثل حديث الفرقة الناجية(20) وذلك لمصادرة حرية لا تزال واهنة وفي طريقها تقف شتى العقبات الداخلية والخارجية لحرمان دعاة الاسلام من حقهم بل من واجبهم في خدمة اوطانهم وفق معتقداتهم من طريق تشكيل الاحزاب الاسلامية.

ولقد بلغ النفوذ الاجنبي وضعف حكام المسلمين في هذا الزمان حد تقرب هؤلاء اليه واستتباعهم له أن حرصوا على النص في كثير من القوانين في البلاد الاسلامية وحتى في بعض الدساتير على حظر تشكيل حزب اسلامي. وبمفهوم المخالفة أنه لا يحل في بلد اسلامي تشكيل أحزاب إلا على أساس يخالف الاسلام ، بينما الدساتير تنص على أن دين الدولة الاسلام .بل على أن شريعته مدارها الاساسي لقانونها الدستوري. ومع ذلك تجد من دعاة الاسلام من يسوق المياه الى مجاريهم فيبحث عن اسانيد واهية لمصادرة حرية هي أصلا تكون غير موجودة، من مثل الاستناد الى الحديث المعروف بحديث الفرقة الناجية واتخاذه أصلا من أصول الفقه السياسي الدستوري مع ما قيل فيه متنا وسندا وقل الشأن نفسه في مسائل مهمة مثل حق المشاركة في الانتخابات النيابية أو المشاركة في السلطة أو حق المراة في العمل السياسي.ناخبة ومنتخبة استنادا لحديث إشكالي يُتّخَذ قاعدة أيضا قاعدة من قواعد الفقه الدستوري، يحظر على نصف المجتمع حقه بل قل واجبه في الاصلاح. أو للآيات ورد فيها ذكر مسمى الحزب والاحزاب تأسيسا

لحظر التعددية مما لا يسر به غيرُ الطاغوت. ولقد أجاب ابن تيمية عنما سئل عن حزب الله الوارد في قوله تعالى "ألا إن حزب الله هم المفلحون" فأجاب بانه يدخل فيها الاحزاب التي تدعو الى الخير والحق. وأن حزب الشيطان يقصد به الاحزاب التي تحادّ الله ورسوله(21).

وحتى الجماعات الاسلامية التي اعترفت بالتعدد السياسي لا تزال تتحفظ مبدئيا أو عمليا على حق الجماعات العلمانية في الحكم والمشاركة حتى وإن دخلت معها في تحالفات ونضالات مشتركة ضد المستبد.

ولقد وصلت كبرى الحركات الاسلامية المعاصرة الى إقرار التعددية السياسية في إطار الدستور الاسلامي وذلك بعد مخاض طويل. والاتجاه العام اليوم في الحركات الاسلامية التي تمثل المجرى الرئيس للتيار الاسلامي ترحب بالتعددية في الاطار الاسلامي إلا أنها من الناحية العملية تتحالف حتى مع حركات علمانية في القضايا العامة مثل مقاومة الاستبداد والتدخلات الخارجية.

يقول الاستاذ مصطفى محمد بعد أن أورد نصوص الاخوان المفرة بالتعددية"وإذا كانت الحركات الاسلامية الرئيسية بعد مخاض طويل رجعت والتزمت بهذا المنهج القويم بعد ضيق افق لزمتها فترة طويلة فان بعض الحركات الاخرى لا تزال قاصرة عن بلوغ هذا المقام والأمر كله لا يعدو ضعفا في الخبرة وضيقا في النظرة سينتهي في يوم من الايام"(22) ولربما تكون حركة النهضة من أولى الحركات الاسلامية التي نادت منذ اليوم لاعلانها وطليها اعتمادها حركة سياسية وفق قانون الاحزاب، أعلنت عن قبولها الكامل بآليات الديمقراطية ومنها رفض العنف والعمل السري والمشاركة في الانتخابات وقبول التنافس مع كل الاتجاهات القائمة كالقبول بنتائج الانتخابات حتى ولو أفرزت الشيوعيين فلن يكون من عمل الحركة يومئذ إلا أن تراجع نفسها وبرامجها حتى تقنع الشعب بخياراتها لأن الشعب إذا رفضها لا يكون قد رفض الاسلام وإنما يرفض هذا الاجتهاد أو ذاك(23) وأنه ليس عدلا ولا اخلاقيا أن نطالب الاحزاب العلمانية الحاكمة بالاعتراف بنا مع وعد منا بل قل وعيد بأننا إذا فتحت أمامنا الابواب وفزنا بالاغلبية فسنقذف

بعيدا بالسلم الذي صعدنا عليه ونحظر من فتح لنا الابواب. ولقد لقي هذا الموقف يومئذ قدرا غير قليل من النقد قد وصل الى حد التبديع والتضليل وحتى التكفير بسبب مطالبته بتعددية لا تقصي أي تيار مهما كان نوع خلفيته الفكرية ما دام ملتزما بمقتضيات الديمقراطية(24).

والخلاصة أنه ولئن عرفت التجربة السياسية للحضارة الاسلامية نظرية للشورى وتطبيقا لتعددية سياسية معترف بها تمثل كابحا للاستبداد وتحقق التداول السلمي للسلطة وتنزع مسوغات العنف وبالقطع لم يعرف غيرها من التجارب إلا أن ذلك لم يعدم الحضارة الاسلامية تعددية حضارية ودينية واسعة جدا منعت من اندلاع حروب دينية وعرقية كانت مألوفة الى وقت قليل في سياق حضارات أخرى ، بسبب ما تأثّل في أصول الاسلام من قواعد أساسية مثل قاعدة حرية الاعتقاد ومنع الاكراه وقاعدة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فضلا عن مبدإ الشورى وغياب أي سلطة دينية تحتكر تأويل نصوصه وتمنح وتحرم أذون الجنة

..كل ذلك يؤهل الاسلام الى إستنبات تعددية سياسية ثرية جدا وازدهارها تفيد من آليات الديمقراطية المعاصرة التي يمكن أن تعمل بنجاح أكبر في ارضه بسبب ما يمكن للبيئة الاسلامية أن تسده من ثغرات خطرة في البناء الفكري القيمي الغربي للديمقراطية مثل استعادة العلة الغائية للفعل البشري والتضامن للعلاقات الانسانية وبالخصوص التضامن الاسري وعلاقات الجواروحضور عالم الغيب في عالم الشهادة بما يعيد الاتصال المفقود بين الارض والسماء بين الدين والحياة بين الاقتصاد والأخلاق بين القوة والحق ويحد من سُعَار التهارش على الاموال والمتاع ويضع ضوابط خلقية على الحياة السياسية والاقتصادية فلا تكون صراعا محموما لا مكان فيه لضعيف

كما أنه يمكن للأقليات الاسلامية المتنامية في الغرب أن تمثل جسر تواصل بين الحضارتين وأن تتعلم من خلال مشاركتها في الحياة السياسية الغربية وبالخصوص مع التيارات التقدمية الانسانية

كيف تمارس العملية الديمقراطية ممارسة عملية منظمة بآلياتها مبرأة من اندفاعاتها المادية والغريزية. والله ولي التوفيق.

❖ المراجع

1. السياسة والحكم: النظم السلطانية بين الأصول وسنن الواقع- د.حسن عبدالله التّرابي ص110
2. سورة الحجرات الآية12. انظر تعليق الشيخ مهدي شمس الدين، على هذه الاية الكريمة العظيمة"هذا الدين يومن بالتعدد لا على مبدإ الاختلاف والنبذ وإنما على مبدإ التلاقي (لتعارفوا) نقلا عن السيد بحر العلوم- مجلة العهد السنة الاولى العدد الثاني رمضان 1420
3. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي.د.محمد حميد الله ص41
4. فقه الشورى والاستشارة د محمد توفيق الشاوي ص321 دار الوفاء- المنصورة1412
5. سيد قطب : تفسير سورة هود في ظلال القرآن. دار الشروق
6. تفسير المنار ص244

7. الميزان في تفسير القرآن. الشيخ حسين الطباطبائي ج11ص60 مؤسسة النشر الاسلامي.قم
8. تفسير الفخر الرازي ص80 ج18.دار الفكر
9. تفسير التحرير والتنوير ص180-190ج12طبعة الدار التونسية للنشر
10. الفخر الرازي المصدر السابق
11. الشيخ ابن عاشور المصدر السابق -22ص300
12. عبد الكريم الخطيب التفسير القرآني للقرآن ج12ص1214 دار الفكر
13. نقلا عن نفس المصدر
14. الوثائق السياسية المصدر السابق. مثير للاستغراب التأكيد المتكرر للباحث الاسلامي عبد الزهاب الافندي:"أن مفهوم المواطنة غريب تماما على الاسلام"نفس المصدررقم 17 بينما دستور المدينة نص على أن اليهود مع المؤمنين أمة من دون الناس ، حتى مع التسليم باستبقاء فوارق، إلا أن الاقامة بأرض الدولة

أعطي حسب ما نصت عليه آية الانفال "والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق"71 بينما هذه الولاية أعطيت لليهود باعتبارهم مواطنين وانظر "نحو فقه جديد للأقليات. تأليف د.جمال الدين عطية أورد فيه رأيا للاستاذ طارق البشري يؤكد مواطنة الاقليات غير المسلمة في المجتمعات الاسلامية الحديثة باعتبارهم شاركوا في تحريرها ص81 كما أورد أن آية الانفال المذكرة آنفا تدل على أن يهود المدينة كانوا من أهل الإسلام

15. الشورى والاستشارة_ المصدر السابق
16. د.محمد عمارة: الاسلام وفلسفة الحكم. دار الشروق
17. عبد الوهاب الافندي.بحث:إعادة النظر في المفهوم التقليدي للجماعة السياسية في الاسلام: مسلم أم مواطن، منشور في الاسلاميون والمسالة السياسية ص176نشر مركز دراسات الوحدة العربية2003

18. ابو الحسن الاشعري .مقالات الإسلاميين
19. مقدمة في تاريخ صدر الاسلام:د.عبد العزيز الدوري. مركز دراسات الوحدة العربية
20. أورده الشيخ يوسف القرضاوي برواياته الكثيرة ونقل تضعيف الكثير له وناقش متنه دحضا لقيمته سندا لزلزلة أصول التعددية والسماحة في الاسلام لصالح التكفير والتعصب وهدم بناء الاخوة الاسلامية وحقوق المسلم وحرمته.انظر كتاب:الصحوة الاسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم.دراسة في فقه الاختلاف
21. مجموعة الرسائل والفتاوى لابن تيمية ج1ص141 وعلق الشاوي "هذا يعني ان مبدأ تعدد الاحزاب معترف به.المصدر السابق ص351
22. تحديات سياسية تواجه الحركة الاسلامية: ص63ط11997 الكويت

23. انظر الى نص البيان التأسيسي لحركة الاتجاه الاسلامي.
في الحريات العامة للدولة الاسلامية.راشد الغنوشي.
ص377-380

24. انظر د. صلاح الصاوي .التعددية في الإسلام

حق الإختلاف وواجب وحدة الصف!..

حق الاختلاف وواجب وحدة الصف!..[2]

❖ أنبل ظاهرة ولكن

تلف عالم الإسلام غيوم قاتمة حاكتها أيادي الانحطاط وتجارب التجديد الفاشلة المرتبكة أورثت المسلمين مسلسلات من المصائب والنكبات وضروبا من الاستبداد والفساد والتمزق والتفرق والمحن المتكررة تكاد النفوس الخيّرة تركن معها إلى اليأس من إمكانية تجنّب الواقع البائس والمصير المهلك بعد أن أحاط بها أعداؤها. إلا أنه في خضم هذه الظلمات الكالحة انبثق قبس من النور تَطلَّعَتْ إليه النفوس الخيرة يحدوها الأمل أن لا يكون ذلك فجرًا كاذبا بل فجرا صادقا... تلك هي أنبل ظاهرة في عالم المسلمين: "الظاهرة الإسلامية" التي ولدت وانتعشت على أنقاض الهزائم المتكررة التي

---

[2] كتب الشيخ راشد أصل هذه الورقة في سجن برج الرومي في تونس سنة 1983، ونشرت في كتاب من تجربة الحركة الإسلامية في تونس منقحة

منيت بها أيديولوجيات اليمين واليسار على المستوى العسكري إذْ قادت الهزائم إلى الاستسلام المتكرر للإمبريالية الصهيونية وحلفائها.

وعلى المستوى السياسي "غدا الاستبداد والقمع كأنه قدرُ هذه الأمة" وعلى المستوى الاقتصادي "الارتباط المذل بالاقتصاد الرأسمالي، وتفقير الشعوب رغم الثروات الطائلة" وعلى المستوى الأخلاقي والثقافي "انتشار التحلل والتخدير والتجهيل والانتقائية".. فكان انتعاش العمل الإسلامي واندلاع ثورات الإسلام في إيران وأفغانستان وسوريا وفي المغرب العربي: أنبل ظاهرة انبثقت من ليالي اليأس الطويلة. إلا أن هذه الظاهرة بقدر الآمال التي عقدتها الجماهير عليها فسارعت إلى الالتفاف حولها وبقدر الأخطار المحدقة بها من كل مكان بقدر ما يشقها من أزمات حادة من خصام وتوتر وعطالة وعنف وارتباك وتآكل. وهي ظواهر لئن اختلفت حدتها من جماعة إلى أخرى إلا أنها تمثل قاسما مشتركا بين الجميع مما شكل المُعيق الأساسي لنموها وفعاليتها وقدرتها على مواجهة تحدياتها والتصدي لخصومها، مما بدت معه للبعض خشية إجهاض ذلك الأمل أمرا واردا جدا إذا لم يقع الوقوف على حقيقة الأزمة

الداخلية التي تعيشها الحركة الإسلامية وإيفاؤها حقها من التحليل والدرس من أجل التشخيص الجاد وتحديد العلاج النافع.

ونلتقي ضمن الإطار المحدود بظروفنا هنا في دار الغربة . بإلقاء أقباس من الضوء على أهم أسباب ظواهر الاختلاف والتمزق والعطالة . داخل الحركة الإسلامية وتقديم وصفة علاجية جاعلين واقعنا القطري نصب أعيننا. إن للأزمة أسباباً مباشرة وأخرى غير مباشرة . وتتلخص الأسباب المباشرة في:

❖ المحنة

إن المحنة في حد ذاتها تعد مرحلة مهمة في تاريخ حركة ما . لأنها تمثل مرحلة متقدمة من مراحل نموها إذ تمرّ حركات المقاومة والمعارضة مع عدوها عبر خمس مراحل:

1- مرحلة اللامبالاة بها.

2- مرحلة السخرية بها وتحقيرها.

3- مرحلة السّب والتشويه.

4- مرحلة الاضطهاد.

5- مرحلة النصر.

فالاضطهاد كما أكد غاندي وآخرون . مرحلة تسبق النصر مباشرة، إلا أنها مرحلة خطيرة إذ يضع الحركة في مفترق طريقين. بحسب أسلوب مواجهته . يقود أحدهما إلى التشتّت والانقسام والتلاشي بفعل غياب قياداتها التاريخية وتأثير الدعاية المضادة التي يقوم بها النظام والأطراف السياسية المنافسة وعمليات الاستقطاب الداخلية والخارجية التي تقوم بها حتى الحركات التي تشترك معها في نفس الأيديولوجية "الحركات الإسلامية الأخرى في صورة الحال". وترتكز محلات التشكيك على القيادات والمناهج توصلا للنتيجة التالية: إن الاضطهاد ما كان ليحصل لولا أخطاء القيادة وعدم جدوى الأيديولوجية الفكرية القائمة عليها والخط الاستراتيجي. غاضة الطرف عن أنه حتى مع افتراض صحة ذلك فإن العدو بحكم خوفه على مصالحه واستماتته في الدفاع عنها لا يمكن أن يترك المجال فسيحا لحركة نموها مطرد في اكتساح مواقعه. دون أن يحرك ساكنا. ويقود الطريق الآخر إلى النصر عندما تنجح الحركة في توظيف ذلك الاضطهاد في تعرية معايب

النظام وفضح ممارساته وارتباطاته ومظالمه حتى تلجئه إلى وضع الدفاع عن نفسه لتبرير القمع الذي يقوم به. ومن ثم تجعل حركات المعارضة السياسية الاضطهاد جزءً من استراتيجيتها فتعمد إلى دفع النظام دفعا إلى ارتكاب هذا الخطأ "الاضطهاد" فتورّطه بذلك شعبيا ولا سبيل إلى تعريته وعزله جماهيريا دون توريطه في العنف. متجنبة الوقوع فيه. فيغدو الاضطهاد أقرب طريق للدعاية لفائدة الحركة وإيقاع النظام في التناقض بين مظاهر الديمقراطية التي يحرص على الاتصاف بها في الداخل والخارج وبين تورطه في العنف ضد حركة سلمية، مما يجعله في وضع محرج ويحرص معه على توريط الحركة ولو في حادثة واحدة للعنف كما أشار إلى ذلك مؤلف كتاب "Gandi contre mecheavel" إن الاضطهاد فرصة الحركة لإيجاد ميزان جديد للقوى، يقول "شافاز" "إن السجنَ جزءٌ فعال في استراتيجية اللاعنف". ولا عجب أن نرى أبواب السجون في كثير من وقائع التاريخ القديم والحديث تفتح على أبواب الحكم. شرط أن تنجح الحركة في مواجهة تحدي الاضطهاد فتحافظ بإصرار واع عنيد على وحدتها وعلى تصاعد نضالها باستمرار وممارسة الشورى في داخلها على أوسع نطاق مهما كانت الظروف. ولقد ذكر لي أكثر من واحد من رجال الحركة الوطنية أنهم

كانوا يستفزّون فرنسا بمختلف وسائل الاستفزاز لتوريطها في ممارسة العنف.

أما بالنسبة لحركتنا فرغم الظواهر العريضة التي سوف نتناولها . فقد أحدثت تجربة الاضطهاد تحولات إيجابية لصالح الحركة على صعيد الرأي العام والقوى السياسية . ظاهرا أو حقيقة. والمنظمات الإنسانية المحلية والدولية حتى غدت قضية "الاتجاه في الإسلامي" مركز اهتمام الرأي العام ولم تجد القوى السياسية المنافسة لنا بدا من إعلان مساندتها اللامشروطة لنا وإدانتها المطلقة للنظام بينما كانت بيانات تلك الحركات قبل المحنة وحتى في بدايتها تعلن مساندة متحفظة مشككة في أهداف الحركة ووسائلها مما يؤكد أنه في إمكان حركة مضطهدة أن تحمل تكاليف كل يوم سجن وتشريد ضرره على خصمها أضعافا مضاعفة بالقياس إلى الضرر الذي يَلْحَقُ بهَا. ولئن دفع ضغط الرأي العام وحركات المعارضة إلى إعلان تأييد ظاهري فقد بذلت أقصى الجهد في استغلال وضعنا للحصول على مكاسب من النظام بتخويفه المستمر من الشبح الإسلامي وبالتحالف معه "الانتخابات التشريعية التي تمت خلال محاكمتنا، تألب الشرائح الطلابية .

الماركسية خاصة. في الجامعة في محاولة لاستنصاله معنويا وجسديا في غياب قياداته التاريخية بين سجن وتشريد". ولقد استهدفت حملة التشكيك التي تعاونت فيها قوى النظام مع قوى المعارضة سرا . وحتى في العلن "تصريح المستيري وعاشور لمجلة المغرب" . فضلا عن محاولات الاستقطاب والتشكيك التي يقوم بها إسلاميون منافسون تحت سحابة ممزقة من التأييد. بهدف استغلال الموقف وإحداث التمزق والتشرذم داخل الاتجاه . ولا يستبعد . إذا لم تقع مواجهة الوضع الداخلي بكثير من الحزم والحكمة . أن تنال تلك المحاولاتُ التي يقوم بها خصوم ومنافسون إسلاميون وغيرهم في الداخل والخارج بغاية الاستقطاب بعضَ النجاح في إحداث الخلل والتمزق.

والخلاصة أن المحنة ليست هي بذاتها سببا في إحداث ما حصل من خلل واختلاف واضطراب . رغم المكاسب التي حصلت من ورائها. بل أن الأسباب السابقة عنها. وهي أسباب عميقة ربما كان يحدّ من تفجّرها بساطة المشاكل التي كانت مطروحة على الحركة قبل مرحلة التحلل من المسؤولية وعدم الحاجة عندئذ إلى مواجهة الواقع ببدائل واضحة، ووجود القيادات المؤسسة للحركة عاملة

في الساحة، ورغم ذلك فقد حدث الانشقاق مما يوجب مواجهة المشاكل الحقيقية بجد أكبر من أجل التحديات. ولا تجدي في ذلك المعالجات الجزئية المستعجلة وتهدئة الأوضاع آنيا عن طريق استعمال النفوذ المعنوي الشخصي لبعض القيادات للقيام بمصالحات مفتعلة، فقد حصل ذلك وما كان له غير مفعول وقتي جزئي. ولا يجدي كذلك إحلال قيادة محل قيادة أخرى لأن أسباب الداء عميقة وهيكلية وقد برزت في أوقات مختلفة لدى جماعات إسلامية كثيرة في أقطار متباينة مما يقطع أن البنيان الفكري والتربوي والتنظيمي هو السبب العميق الذي لم يعدم مفعوله وجود زعامات كبرى على رأس تلك الحركات، وهو بنيان لئن حصلت فيه بعض التعديلات الجزئية أو السطحية أحيانا بتأثير حركات الإصلاح فجذوره مترسخة في أعماق التراث.

- <u>تأثير التراث</u>

التراث الإسلامي هو مجموعة التفاعلات التي حدثت بين الإسلام والواقع وما أثمرته من طرائق للتفكير وأساليب وأنظمة للحياة ومسالك وأذواق وآداب للأفراد والجماعات. وهي آثار لا تزال تمارس تأثيراتها الإيجابية حينا و السلبية أحيانا، تمارسها حتى على

اشد النَّاسِ إنكارا لها وعداء، ولها قدرة هائلة على الحكم بالنجاح أو الفشل على تجربة ما لتغيير الواقع بحسب الموقف المتَّخذ منها. ونكتفي في إبراز أثر التراث على واقعنا بالتركيز على بعض الأحداث والقضايا المهمة في ذلك التراث.

أ. قضية الاستبداد

إن الإجهاض المبكر لتجربة الحكم الشوري في الإسلام وبروز المطلق القبلي "قريش دون الأوس والخزرج من الانصار. وبنو أمية دون سائر قريش وبقية المسلمين. وبنو هاشم. العباسيون دون سائر العرب والمسلمين الخ الصراعات القبلية في ظل الإسلام" كان له أبلغ الأثر ولا يزال على جميع شُعَبِ الحياة الإسلامية على تعددها. فقد غدا الاستبداد طابعا مميزا لها جميعا، بل غدا مؤسسة تعيد إنتاجه في مستويات مختلفة. على المستوى السياسي: أبعدت الجماهير عن السلطة ولا يُؤْتَى بها إلا لأداء مراسم بيعة شكلية طوعا أو كَرْهًا.. وانحصر الخلاف الفقهي في ذلك الصدد الذي يمكن أن تنعقد به البيعة حتى وصل الأمر إلى اعتبار الحكم شرعيا إذا بايعه شخص واحد قياسا على عقود البيع والتجارة .. ولم تطرح قضية مدى شرعية الحكم الوراثي حتى من طرف كبار

الفقهاء.. وعلى المستوى الثقافي العقائدي سيطرت البحوث الكلامية التي ركزت عقلية الجَبْر وسلب الإنسان كل إرادة واختيار لصالح الألوهية بزعمهم فسادت الأشعرية وهي جبرية مغلفة بأقنعة غامضة.. وعلى المستوى التربوي ساد التصوف الذي عزف طويلا أنشودة الفناء كهدف أعلى للتدين فسحر الناس وطوح بهم في عالم الأوهام.. وعلى المستوى الأسرى تركزت عقلية الاستبداد وإفناء شخصية الزوجة والأولاد حتى غدت الأسرة افضل مؤسسة في مجتمع الاستبداد تمثيلا وإنتاجا له. وعلى المستوى الاقتصادي عبثت أيدي أمراء الجور بالقطاع العام وهو كل أرض الفتوحات "أرض السواد أو العنوة" وأقطعوها لعملائهم وأقاربهم وقادة جندهم فظهر أسلوب الخماسة والرباعة...

ب. الاغراق في القضايا اللاهوتية الغيبية:

التي شغلت الأمة ببحوث ما ورائية لا طائل من ورائها "علاقة الذات بالصفات. خلق القرآن. مكان وجود الله في جهة أم في غير جهة؟ الله يرى أم لا يرى؟ كيف اسري بالنبي بالروح فقط أم بالروح والجسد؟ الخ" وهي بحوث كان طبيعيا أن تنشأ في ظل الاستبداد وتشجيع منه لصرف الجماهير والمفكرين عن واقعهم البائس. وكان

من الطبيعي أن يَضِلَّ العقلُ المسلمُ في متاهة تلك البحوث وأن لا يصل فيها إلى وفاق لتجاوزها لمجال العقل. فكان ذلك سببا آخر إلى جانب التمزق والانشقاق على المستوى السياسي أن يقع التمزق على المستوى العقائدي وتظهر عشرات من الفرق كل منها يزعم أنه يمثل الحقيقة المطلقة وينفيها عن الآخر. وكان ذلك النفي الفكري مرحلة للنفي الجسدي للآخر "الصراع الدموي بين السنة والمعتزلة، وبين السنة والشيعة وبين السنة والخوارج وبين المذاهب السنية نفسها" فكان ذلك كله أسبابا عميقة لتجذير التشرذم في البيئة الإسلامية حتى عصرنا هذا.

ج - سيادة التقليد وغياب الاجتهاد:

وهو ثمرة لتضخم الماضي على حساب الحاضر. وهو ثمرة من ثمار مجتمع الاستبداد إذ تتحول الجماهير إلى قطعان تساق من طرف السياسي وشيخ الطريقة وفقيه المذهب، تساق بدون وعي، مشدودة إلى الماضي . فهناك الانتصارات العسكرية الرائعة والازدهار الفقهي والعلمي إذ تكونت المدارس الفقهية والكلامية الكبرى. فماذا للحاضر أن يضيف أو يعدل وقد اكتملت الحقيقة في الماضي، غير بذل أقصى الجهد في فهم تلك الآثار ومحاولة إيجاد

مشبهة، كلما عرضت حادثة جديدة، بينها وبين حادثة مرت في الماضي وتناولها فقيه لنقل أحكامه وتطبيقها على الواقعة الحاضرة. فلا عجب أن تواجه بعد ذلك كل فترة جديدة بحملات من التشويه "حرق كتابات ابن حزم والغزالي وابن تيمية الخ..." لإجهاضها بالانصراف عن مناقشتها بجد ومهاجمة صاحبها لرميه بالجهل بالدين وسوء القصد والجرأة على السادة العلماء وحتى بالعمالة للأعداء، بدل التوجه إلى الفكرة وتمحيصها والعمل على تطويرها وإثرائها. وأنّى للقوى المحافظة أو المستفيدة من استقرار الأوضاع أن تدرك جديدا في تلك الفكرة وهي مشدودة بقوة إلى الماضي مستلبة لحسابه أبسط أساليب مقاومتها للمجددين: سخريتها بهم بأنهم "علماء آخر الزمان". أنها تشيد بالماضي لقمع الحاضر وترفع أعلام الماضي لتقزيم أعلام الحاضر، ولعجزها عن مصادمة الفكر تصادم الشخص وإذا تناولت الفكرة أثارت حولها زوابع من الانفعالات وحملات تشويه عاطفية.

ومن الطبيعي مع سيادة التقليد أن يختفي الفكر وأن يختفي الإبداع وأن يستعاض بالمشاكل الحقيقية الواقعية بمشكلات وهمية "الصراع بين السنة والشيعة. المذهبية واللامذهبية.

الخلف أم السلف؟ علي أم معاوية؟" وباختفاء الفكر تختفي إمكانية الحوار الجاد.

د. فشل المسلمين في إدارة الحوار بينهم:

اعتبر الإسلامُ الخلافَ أمرًا طبيعيًا بين البشر أراده الله ليؤديَ وظيفة معينة في حياتهم هي تمتعهم بالحرية وتحمل مسؤولية وجودهم وإثراء الحياة بمواقفهم المختلفة. فالله إذ جعل الإنسانَ خليفةً فما يمكن أن تتحقق تلك الخلافة بدون حرية وإردة وعقل أناط بها مسؤولية الإنسان، فكان الاختلاف والتميز بذلك حقا شرعيا للإنسان، ومنعه لأي ضرب من ضروب الإكراه اعتداء فاحشا على الكيان الإنساني ومصادمة لغرض أساسي من أغراض الخلف "ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة" (المائدة:48) ولكنه لم يشأ أن يجعلهم رأيا واحدا وعقيدة واحدة وقالبا واحدا ونسخا متطابقة بل أراد أن يتميز كل منهم بشخصية متفردة بخصائصها تساهم من موقعها في إثراء الحياة "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك. ولذلك خلقهم" (هود:118_119) .كما يقول الشيخ الطاهر بن عاشور . للتعليل، لأنه لما خلقهم على جبلة قاضية باختلاف الآراء والنزعات وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلة كان الاختلاف علة غائية

"ولذلك خلقهم" (هود: 119)، ولكن الله سبحانه وتعالى .كما يعلق الشهيد سيد قطب. "يُحِبُّ أن تبقى هذه الاختلافات المطلوبة داخل إطار واسع عريض يسعها جميعا هو التصور الإيماني الصحيح الذي ينفسح حتى تضم جوانَحه شتّى الاستعدادات والمواهب والطاقات فلا يقتلها ولا يحجبها ولكن ينظّمها وينسّقها ويدفعها في طريق الصلاح.." ومن ثم لم يكن بد أن يكون هناك ميزان يفيئون إليه "فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والحكمة ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه" (البقرة:213) وبغير هذا الحق الواحد وبغير الانتهاء إلى حكمه بلا مماحكة ولا اعتراض، بغير هذا كله لا تستقيم الحياة ولا يقوم في الأرض السلام "الظلال ص 215 إلى 216. فالاختلاف في طبيعة البشر أصيل وهو مراد من الله في استخلاف الإنسان ولكنه يغدو مهددا لوحدة البشرية وسلامها بالتمزق والدمار إذا لم يلتزم بالإطار العام للإسلام وهو يتألف من أصول الدين . مما لا يجوز الاختلاف فيه . وهي جملة عقائده وتشريعاته وقيمه مما هو صريح معلوم من الدين بالضرورة، صرحت به نصوص الكتاب صريحا واضحا، تستوي في إدراكه العقول السليمة. أما المتشابه وهو ما التبس معناه فيُرَدُّ إلى الراسخين في العلم "ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه"

(الطلاق:1) . فالاختلاف إذن حق بعد كل انتقاص منه من أجل حمل الإنسان على رأي واحد أو مذهب واحد اعتداء على الطبيعة الإنسانية وإفقارا للحياة وتشتيتا للطاقات.

ولكن إذا كان الاختلاف حقا ثابتا فوحدة الصف واجب بأمر مباشر من الله سبحانه "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون" (آل عمران: 104) فالنجاح في مواجهة التحديات لا يتحقق إلا بصف موحّد وإن اختلفت اجتهاداتهم في فروع الدين وأساليب التطبيق. فهم ملتقون على أصول الدين مما هو صريح الكتاب "إن الذين فَرَّقُوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء" (الأنعام:159) والاختلاف إذا تحقق الالتزام بما هو صريح واضح في الدين لا يشكِّلُ أبدا عقبةً في طريق وحدة الصف الإسلامي بل هو ثراء له.

إنها وحدة في تنوع وتنوع في وحدة مما يجعل مثل هذا الاختلاف رحمة إذ تجتمع . بقبوله . شتى الطاقات وتساهم كلها بإتلاف مواهبها في إثراء الحياة وتقدّمها، فيغدو المختلفون وكأنهم يتنافسون في لعبة متّفقين على قواعدها بعيدا عن كل تمذهب صلب وتعصب أعمى وفرض ألوهية مذهبية أو حزبية أو قومية.

"ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك" (هود:118_119) فليس كل اختلاف مذموم. فهناك مختلفون مطرودون من رحمة الله أولئك الذين قادهم اختلافهم إلى أن أصبحوا شيعا متعادية متنابذة. وهناك مختلفون مرحومون أولئك الذين لم يَحُلْ اختلافهم دون توحّدهم واجتماع كلمتهم ضمن إطار الحرية: إطار أصول الإسلام وتعاليمه الثابتة. وما أوسعه من إطار. لو التزموا فيه بآداب الحوار الإسلامي.

إنه ليس غريبا أن نختلف بل من الغريب والخسار أن لا نختلف وقد تنوّعت وتعقّدت مشكلاتُنا وحاجاتُنا. والناس كانوا أمة واحدة لا اختلاف بين أفرادها في العهد البدائي عندما كانت حاجاتهم بسيطة. فلما تعقّدت مشكلاتهم بتطور علومهم وحاجاتهم لم تعد الفطرة كافية في هدايتهم لحل تلك المشكلات فبعث الله النبيين لهدايتهم إن المشكل هو أن يهدد اختلافُنا وحدتَنا ويمنع اتفاقنا ويشلّ قدرتنا على التقرير في أمهات قضايانا وأن يتعكر حتى صفو علاقاتنا الشخصية. علاقات الاخوة الإسلامية.

اختلف المسلمون وكان في خلافهم من جهة ثراء كبير لحضارتهم. ولكن من جهة أخرى ولأسباب كثيرة منها . سرعة إجهاض تجربة

الحكم الشوري وقيام الملك العضوض. ونكون الثقافة الإسلامية في ظل الحكم الاستبدادي . فشلوا إلى حد كبير في إدارة الحوار بينهم.. نجحوا في السقيفة في إدارة حوار راند أرسي على أساسه نظام الخلافة الشوري. ولكن مبدأ الشورى لم يُوطَّر ولم يُقنَّن فظل يمارس على نحو تَغلِبُ عليه العفوية ويعتمد إلى حد كبير على نوعية الحاكم لا على تنظيمات ومؤسسات ولذلك ما أن تغيرت نوعية الحاكم . على عهد سيدنا عثمان . بسبب ضعف الرجل وتعقد المشاكل خلال الفترة الثانية من حكمه حتى عجزت العفوية عن مواجهة الأمر وسهل في فترة لاحقة على المستبدّين أن يُفرِغُوا الشورى من محتوياتها ويبعدوا الجماهير عن الحكم. ومنذ عهد مبكر استبدلت الشورى، أي حكم الشعب كأساس، بالقوة كأساس للحكم، وغدا السيف هو أسلوب الحوار واضطرت المعارضات إلى أسلوب السرية والعنف، وقامت المذاهب الكلامية تبرر في كثير من الأحيان نمط الحكم القائم وتكفر معارضيه، وتفعل المعارضة نفس الفعل. وكان لمواريث القبائل من عصبية وعنف كما للمواريث الإمبراطورية السائدة في العالم أثر بالغ في إجهاض النموذج النبوي الراشد للحكم الشوري.

وكان من أسباب فشل الحوار عدم تفريق المتحاورين في كثير من الأحيان بين الحق الواحد المتمثل في الإسلام وبين الفكر الإسلامي وهو مجموعة الفهوم التي يستنبطها البشر من خلال الدولة يعتبر دولته تجسيدا للحق فمعارضوها مارقون كفرة، وصاحب المذهب الكلامي يعتبر مذهبه هو الحق فيميل إلى تفسيق أو تكفير الآخرين. ولقد أورثت تلك الصراعات بين الدول والمذاهب وتنافيها المتبادل صراعات مختلفة داخل المجتمع الإسلامي بين القبائل والطرقيات، صراعا هو باستمرار تناف مشترك تمارس فيه كل الأساليب اللاأخلاقية والعدوانية وكل ضروب الدهاء والتآمر والعنف، واستقرت في ظل مجتمع الاستبداد ثقافة للاستبداد خلاصتها: أنت نسخة مني أو طوع أمري وإلا فأنت عدوي، ولا وسط بين قرني التنافي .. فلا عجب وقد نجحت الحركة الإسلامية المعاصرة في استقطاب جماهير غفيرة وأن تغدو أملها في العزة والحرية، أن تفشل في إجراء الحوار داخلها لأنها إلى حد كبير استمرار لمجتمع الاستبداد إذ غدا الحوار شحنات انفعالية تهيأ لتصفية بعضها على الجبهة وأن يأخذ مسار تطورها اتجاها واحدا من الوحدة إلى التشتت. خلافا لمسار التطور الغربي من التشتت إلى مزيد من التوحد. فالقبائل في أوروبا تطورت نحو الوجود القومي

وتطورت هذه نحو الوحدة الأوروبية ووجدت المجتمعات الليبرالية ووحدة الغرب قاطبة بالمعنى الحضاري ضد الشعوب الأخرى. وذلك هو مسار العقل وأسلوب عمله: سير متواصل من الكثرة إلى الوحدة، إلى وحدات أرقى "قانون نيوتن في الميكانيك الحرارية نسبية انشتاين كقانون القوانين". ذلك هو شأن التطور عندما يحكمه العقل حول مضامين فكرية. أما عندما يحل الانفعال محل العقل بسبب غياب الفكر والاكتفاء بترديد الماضي أو رفع شعارات، فإن الانفعال هو أسلوب الحوار، والسباب والشتائم والتراشق بالشعارات والانتصار للزعيم الفلاني أو الفلاني أو لحزب أو ثورة ضد حزب أو ثورة أخرى هو مضمون الحوار. وكيف يمكن للحوار أن يثمر غير مضمون الحوار، عندئذ كيف يمكن للحوار أن يثمر غير وجع الرأس والتنفيس عن الأحقاد والكبت والمزيد من تمزيق الصفّ والتنافر المتواصل والإسراع إلى الحلول السهلة القاتلة: حملات التشهير والافتراء والطرد والتجميد ورفع أعلام جديدة والتنويه بشيوخ جدد للقبائل الجديدة وتهيؤ الجميع لساعة الحسم. غاب الحوار. كما يقول حسن حنفي . وأصبح الخلاف في الرأي انشقاقا وأصبح التصلب سمة في الممارسة وجرت العادة على تصنيف الآخرين في قوالب جامدة يستحيل معها الحوار

بالرغم مما كان لهذه الجماعات المغلقة من شعبية .. وغاب الحوار الديمقراطي الحر فسهل الانشقاق عليها من أجنحتها المختلفة فتذهب الطاقات في الدفاع عن الشعارات أو الأشخاص أو النماذج ولو كانت علاقتها بالواقع المراد تغييره بعيدة الشبه، ويغدو الفكر مجرد عواطف وجدانية تتطاير فوق الواقع وتحجبه، وعادة ما يكون الحوار دفاعا عن النفس أو المذهب ورغبة في الشهرة ومزايدة وإعلانا عن الذات، والدفاع يرتبط بالجدل والمهاترة والانفعال. الجدل لا يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة بل يهدف إلى الانتصار على الخصم، وبدل أن تتوحد جهود الجميع في عمل مشترك تتعارض وتتنافر ويلغي بعضها بعضا. المجادل لا يفكر بل يريد هزيمة الآخر ولو كان على حساب موضوعه ومنطقه. المجادل لا يفكر بل يعارك ويحارب فيضيع العقل وتسود العاطفة بسبب غياب الفكر. "حنفي 115. 116 التراث والتجديد" وصاحب الفكر. كما يقول أحمد أمين . في فيض الخاطر هادئ مطمئن يدلي برأيه يعرضه عرضا منطقيا مستندا إلى العقل والبرهان، ويستمع إلى المعارضة بانتباه شديد ورغبة أكيدة في أن يجد لديه تصحيحا لرأيه وتمحيصا له، ليقينه بمحدودية علمه وعقله ونسبية رأيه، بينما صاحب العقيدة متحمس منفعل لا يرى الحق في غير عقيدته فمن

يجادله فيها هو عدوه الألد وخصمه المبطل. وما انفعالاتنا إلا تعبيرا عن خطأ كبير هو تحول "آرائنا". إن لم تكن شعاراتنا. في نفوسنا إلى عقائد هي عندنا الصورة الوحيدة للحق، وتحول محاورنا أو مخالفنا إلى عدو وخصم لا إلى رفيق في الطريق. كثيرا ما يتحول ذلك المخالف لنا . في مجرد وجهة نظر لا عقيدة تتعلق بكفر أو إيمان . يتحول في أعيننا إلى صفحة سوداء كالحة لا نور ولا خير فيها. فنصب عليها جام غضبنا وحقدنا وكبتنا وكل ما في جعبة تخلفنا من اتهامات في الدين والخلق: إنه مائع أو عميل أو متطرف أو فاسق أو خائن وحتى سارق، وننسى في سكرة الانفعال وحضرة الجدل أخلاقيات الإسلام في التعامل التي تمنع اعتماد الظن وإن يكن غالبا في الحكم على الأشخاص والتشهير بهم أو اغتيابهم وإن كانوا مخالفين، وبغضهم بدل الرفق بهم وإعانتهم على الشيطان والتوجه الخالص في صلواتنا إلى أن يهدينا وإياهم إلى الحق وأن يبارك في اخوتنا وأن يقضي ما نعلم وما لا نعلم من حوائجهم وأن نسعى عمليا في ذلك، كما ننسى في غمرة الشيطان الجدلية المتخلفة أن اليأس من الإنسان يصادم منهج الإسلام ودعوته كما يصادم كل منهج ثوري، فأخص ما يميز الثوريين على الطغاة الثقة في الإنسان، في الشعب، وقدرته باستمرار مهما بلغ فساده على التحول "اللهم

إهدِ قومي فإنهم لا يعلمون" إن اليأسَ من الإنسان والمراهنةَ على تحطيمه منهجٌ يتعارض مع كل فلسفة للدين أو للثورة. وإنما هو ثمرة غياب الفكر وإرث من مواريث مجتمعات الاستبداد إذ اليأس من الإنسان هو الخطوة المباشرة لإعدامه وتصفيته جسديا والحسم معه. واليأس من الإنسان هو سلاح القوى الرجعية المحافظة المستبدة تقمع الجماهير وتمارس العنف المادي والمعنوي وتراهن على الأساليب العسكرية البوليسية لقهر الجماهير وفرض حجة القوة على المخالفين لتُقِيمَ حكم القوة على أنقاض حكم العقل والشرع. واليأس من الناس هو يأس من رحمة الله وشك في قدرته "إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" (يوسف:87) "خصلتان حبيبتان للرحمن: حسن الظن في الله والثقة في الناس" كما ورد في الحديث، وكيف يراودنا الأمل في هداية نصراني أو يهودي أو شيوعي واللقاء معه في صف الإيمان والنضال ويستبد بنا اليأس حتى أن مجرد إمكانية الحوار فضلا عن اللقاء مع إخوان لنا تجمعنا وإياهم محبة الإيمان؟ هل من يقظة أيها الناس؟

- **الانفصال عن الواقع**

وإن من أسباب فشل الإسلاميين في إدارة الحوار بينهم اغترابهم عن الواقعية يهيمون مرة وراء مثاليات تاريخية ونماذج تراثية يحلمون ببعث رفاتهما وقد مضت وتخلت في رميم، ويذوبون مرة حد الفناء في تجارب ونماذج كان أهم سبب لنجاحها قدرتها على فهم واقعها وحسن التفاعل مع معطياته، ولكن نجاحها يغري المتحمسين لمحاكاتها شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لم نتردد في دخوله. وينجذب آخرون انجذابا صوفيا نحو عالمية مجنحة لا تعدو أن تكون طموحا أو حنينا إلى خلافة منقرضة وليس لها من الأسس الموضوعية ما يؤهلها للتطور والفعالية.. وتحاول تلك العالميات أو التجارب الجذابة بل يحاول أصحابها جهدهم إسقاطها على واقع مختلف دون دراسة علمية لذلك الواقع الذي نالهم وينال الكثير بسبب طموحهم إلى تغييره، فكان حريا بهم أن يجعلوا منطلقهم، وتحدد أوضاعه ومصالحه نمط علاقتهم مع كل التجارب والنماذج والعالميات. لقد هامت قبلنا وراء العالميات حركات معارضة كثيرة فما تقدمت خطوة نحو الواقع وفهمه والتفاعل به وتغييره، وما زادها هيامها وراء النماذج

العالمية غير مزيد من التمزق والتشتت والصراع الداخلي وتهميش كيانها، والواقع من حولها يتطور وحركات أخرى تبرز وهي مشغولة بالدفاع عن تلك العالميات ومحاولة إسقاطها على الواقع، يغني كل منهم على ليلاه. ولكنهم تنبهوا أخيرا إلى أن تغيير ظاهرة لا يتم إلا بمعرفة قانونها وذلك لا يتم إلا بتحليلها وفهمها بعيدا عن كل أفكار مسبقة، فكثفت دراستها للواقع التحامها به فكان ذلك عاملا فعالا في إعادة الاعتبار لها واتجاهها نحو توحيد صفوفها واعتبار العالميات كلها مجرد تجارب للاستفادة وليست نماذج للإقتداء.

إن الفكر الفعال لا يولد إلا من خلال تفاعله مع الواقع، وإنه لا وحدة إلا على صعيد الواقع، إعطاء حاجاته ومقتضياته الأولوية لا ينازعها أولويتها إلا صريح الوحي، ولا أمل في بناء أيديولوجي استراتيجي إسلامي إلا من خلال استيعابٍ كاملٍ لمعطيات ذلك الواقع.

تقديرنا ان التخلف والتحضر ظاهرتان لا ترتبطان وجودًا أو عدمًا بعقيدة معينة كالإسلام أو النصرانية أو المادية، بقدر ما ترتبطان بمدى احترام هذه الديانة / الفلسفية أو تلك لكرامة الانسان وحريته، ومدى قدرتها على ابداع أنظمة حياة تفسح المجال أمام ملكاته للتفتح والنمو والإنتاج والتطور، بعيدا عن القمع والكبت والتخويف بما يجعل الحضارة فضاءً مفتوحا لاستقبال الكفاءات العالية وتوفير فرص النمو والتكامل وتبادل التأثير، فيما التخلف مزبلة طاردة لكل المخلوقات الجميلة لا تمسك ولا ينجذب إليها غير الجراثيم والعناصر الضارة.

الأستاذ راشد الغنوشي

دار الصحوة
للنشر والتوزيع
ك.م.د.ن I.S.B.N. 9973_746_05_8

تواصل مع الأستاذ راشد الغنوشي
Www.Rachedelghannouchi.com
Facebook.com/rached.ghannoushi
Twitter.com/R_GHannouchi